كلمة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني

في حفل تأبين الأستاذ الدكتور محمد محفل 2019/ 2/ 13

أيها الحفل الكريم

إني إذ أشكر لكم حضوركم حفل تأبين فقيدنا الكبير الأستاذ الدكتور محمد محفل أقول:

إن التأبين لا يعني الإغداق على الصديق العزيز رحمه الله بالمديح والتقريظ وهو ليس بحاجة إلى مثل ذلك، بل إن الغرض هو توضيح المسار العلمي لمن اختاره مجمعنا عضواً عاملاً، بالاستناد لما في ذلك المسار من تميّز وحصافةٍ في انتقائه للموضوعات العلمية المحيطة بمادة التاريخ التي هي تخصّصه.

وكان مجمعنا قد فقد رصيفَتنا الدكتورة ليلى الصباغ أستاذة التاريخ، وهي أول امرأة تدخل مجمعنا منذ تأسيسه قبل ما يقارب مئة عام، فرأى مجمعنا ترشيحَ الأستاذ الدكتور محمد محفل لمقعدها الشاغر.

وذلك لأن النظر إلى سيرته العلمية، بعد حصوله على البكالوريا عام ١٩٤٩،قد أوضح اختياره الانتسابَ إلى المعهد العالي للمعلمين، وهو انتساب يدل على تعلّقه بالتدريس، رغبةً بما فيه من توضيحٍ للمجالات العلمية إلى المُتلقّين من الطلبة، معتمداً أفضل الطرائق التعليمية التي يتدرّب عليها في المعهد العالي، وهذا ما يسمح له بإتمام مسؤوليته الوجدانية في إيصال الطالب إلى المستوى المرغوب.

ومن يعود إلى تاريخ الجامعات والمعاهد التعليمية الحديثة في أوربا يَظهرُ له بكلّ وضوح قيمةَ الانتساب إلى المعهد العالي للمعلمين، حيث يطّلِع على إحصاءات أثبتت أن نسبةً كبيرة من رجال السياسة ورجال الفكر في فرنسا كانوا من خريجي هذا المعهد، الذي بسط أمامهم نماذج فكريةً متميزةً شاركت في حدوث ذلك الانبثاق المعرفي الحداثي في أوربا القرن العشرين، واستفادوا منها في حياتهم وإنتاجهم.

وإلى جانب ذلك فقد لفت نظرَ مجلس المجمع إصرارُ الدكتور محفل على الانفتاح المعرفي في صميم الدراسات التاريخية، التي تؤكّد لمن يسلكها وجودَ تطوراتٍ مجتمعية اجتاحت الدول في الشرق والغرب، حاملةً بذورَ النهضة والارتقاء، أو بذور الخراب والانشقاق، وهذا ما كان واضحاً في الخرائط الجغرافية طيلة القرن العشرين. إنها تطورات يحتاج إلى فهمها كل من يسعى إلى إزالة الغموض عن بعض التحولات التاريخية حين دراسة تاريخ مجتمعه.

كما أن رغبَته في الانفتاح على ما يجري في بلاده، وإدراكَه لأهمية التدريس في بناء المجتمعات جعله يُضيف إلى دراساته دبلوماً في علوم التربية وفي علم النفس من جامعة دمشق.

وإضافة إلى هذه المنطلقات فقد حَظي رحمه الله بإيفاد إلى جامعة باريس لمتابعة الدراسات العليا في التاريخ القديم بعد أن أنهى دراسة التاريخ في كلية الآداب في دمشق.

فاغتنم هذه الفرصة لدراسة اللغات القديمة، غربية كانت كاللاتينية واليونانية أو مشرقية كالآرامية، بقصد الولوج إلى صميم النصوص والكتابات التي تسمح له بتفهّم مرتكزات التاريخ القديم في بلادنا.

كما أنه انتسب إلى معهد اللوفر في باريس وهو الحاوي على قِطَعٍ نادرة من الآثار السورية، وقد حصل على شهادة علم الآثار فيه.

وبذلك قد جمع فقيدنا الأسس العلمية والفنية لدراسة التاريخ كي يتمتع بالعمق الكافي للقيام بتدريسه.

ثم رأى أن يكون تخصصه بالعصر الروماني الإمبراطوري نظراً لأن بلادنا كانت مسرحاً رئيسياً لما نعرفه عن نشوء الإمبراطورية ثم انهيارها، حين انتقلت عاصمتها إلى مشرقنا وسادت بيزنطا على عالم البحر المتوسط، وكانت دراسته هذه في جامعة جنيف في سويسرا.

وعرفت جامعة دمشق بعد ذلك الدكتور محمد محفل أستاذاً للتاريخ القديم وأستاذاً للغات المشرقية القديمة في كلية الآداب، وأستاذاً في كلية الفنون الجميلة حيث كان يتولّى تدريس تاريخ الفن في كلية هندسة العمارة، إلى جانب تدريس تاريخ الحضارات.

وهكذا نرى كيف أن هذه الخيارات قد جعلته يستكمل بمجهود شخصي تخصصاً متعددَ الروافد، منها ما هو لساني، ومنها ما هو فني، مع إصرارٍ واضح على تكوين معرفة تكاد تكون موسوعية تضم اللغات القديمة، المشرقية والغربية إلى خبرات فنية توصيفية، تكشف تطور البراعات التنفيذية وتحدد حقائق الابداع والتقليد.

أيها الحفل الكريم

لقد عرضتُ لكم مختصراً عن نشاطات الدكتور محفل التعلّمية والتعليمية بما يكفي لتوضيح عمقِ انتمائه إلى وطنه، بالإضافة إلى مساعيه الهادفة إلى الإفادة من كل شَذَرَة وجدها في دراساته لتأكيد أصالة الثقافة العربية، الحاملة لمجالات واسعة من التثاقف، ما جعلها تتربّع على عالمية مستقرّة في أوربا اعتباراً من القرن الرابع عشر وحتى نهاية السادس عشر.

وكان بروز هذه العالمية بعد أن اعتمد الغرب، فلسفةَ ابن رشد وما رافقها من فتوحات معرفية وعلى رأسها الطريقة التجريبية في العلوم وهي مفتاح كل بحث علمي.إنها الفتوحات التي أوصلت الغرب إلى العالميّة بعد أن انتقل العلم العربي من الأندلس عن طريق التراجمة إلى الجامعات الأوربية فعرفوا ابن النفيس وابن الهيثم وابن سينا وغيرهم وأشهر هذه الجامعات كانت جامعة مونبليه في فرنسا

ولابد لي من القول:

لقد كان الدكتور محفل مجمعياً مثالياً، فهو مثالي في تكوينه العلمي المتكامل، إذ أضاف إلى مجاله التخصصي مجموعةً من الفروع العلمية بل علوماً مستقلة تُوسّع أفقَ تخصصه المحدد، بما يعطي له عمقاً علمياً يساعد على تفهّم دقائق التخصص، وذلك بجهوده الشخصية واستفادةً من ظروف سانحة.

كما أنه كان مثالي في ارتباطه الوجدانيّ بأعمال المجمع، يحضر جميع الجلسات ويشارك في مناقشة الموضوعات المطروحة،وذلك في لجنة الإعلام التي تدرس لغة الصحافة والعبارات الدارجة في الإذاعة والتلفزة، لتخلّصها مما فيها من عجمةٍ تقضي على صفاء لغتها فانبرت اللجنة إلى إعداد المقابلات العربية لتلك الألفاظ الدخيلة وكذلك فإن مشاركته في لجنة ألفاظ الحضارة كانت متميزة بما له من إلمام في عدد من اللغات وسيعرض معجم ألفاظ الحضارة على المؤتمر العاشر قريباً

ولا شك بأن مانشره من دراسات في المجلات العلمية العربية عن مشكلاتٍ معاصرة، كنشأة الصهيونية مثلاً، كان لها دور كبير في توضيح العناصر المكونة للفكر الصهيوني، ولذلك فإن دراساته في مجلة الدراسات التاريخية التي كان يرأس تحريرها قد لفتت الأنظار إلى صلات القربى بين لغتنا العربية واللغات المشرقية التاريخية وبخاصة اللغة الأكادية التي كانت سائدة في بلاد الرافدين، والتي كشفت دراسات عديدة وجودَ آثارها في نسبة عالية من ألفاظ اللغة العربية المعاصرةَ. وقد كافأه السيد الرئيس على مجهوده العلمي بوسام الاستحقاق السوري بدرجة ممتازة

أيها الحفل الكريم

إن مجمعنا لاينسى أولئك المخلصين للغة العربية الذين بذلوا جهوداً فعالة حين أسسوا أول مجمع في العالم العربي، مؤكدين قدرة هذه اللغة العريقة على تحمل أعباء الحداثة في العلوم وفي جميع المجالات التقانية.

وقد كان عملهم خلّاقاً حين تمكنوا من القضاء على محاولات التتريك وفتحوا الباب واسعاً للنهوض باللغة العربية لغةً علمية حداثية. وهذا ما جعل مجمعنا عماداً لإنشاء جامعة وطنية تدرّس الآداب والعلوم باللغة العربية، وذلك في ظروف سياسية كانت تسعى خلالها سلطات الانتداب أن يكون التدريس فيها باللغة الفرنسيةوذلك عام ١٩٢٠

ونحن اليوم نسير على خطاهم متجاوزين كل الصعوبات التي تمثلها تلك العولمة التي تجتاح رياحُها العاتية جميعَ الثقافات التي لم تشارك في بناء الحداثة.

فلقد أنجز مجمعنا في سنوات قليلة عدداً من المعاجم العلمية التدريسية في مختلف العلوم الطبيعية: في النبات والحيوان، وعلوم الأرض، وألفاظ الحضارة، إلى جانب المعاجم الخاصة بالرياضيات والمعلوماتية والفيزياء والكيمياء.

إنها مجهودات نُطلق عليها عملية توطين العلوم، وهي تهدف إلى مناهضة الميول التغريبيّة التي نراها حولنا حين نستمع إلى أحاديث الشباب وذلك للتأكيد على اعتماد اللغة العربية لغة علمية صالحة لجميع المستويات وجميع العلوم

ولذلك حاولت اليوم أن أبرز مسار فقيدنا العلمي الذي ضمّ إلى التخصص الأساسي مجموعة من العلوم والدراسات أوصلته إلى نظرة شاملة تتحدى الصعوبات في أي مجال من مجالات توطين العلوم والتقانات.

ولذا ستبقى ذكراه حية في قلوبنا مقدرين تميزه في خدمة بلاده وعمق اهتمامه بتطوير اللغة العربية بما يجعلها قادرة على تجاوز عقبات العولمة ومنزلقات التقانات.

رحم الله فقيدنا وأسبغ عليه رضوانه

والسلام